المحاضرة الرابعة :

رواد علم الاجتماع: كارل ماركس– ماكس فيبر

تمهيد:

بعد التطرق في المحاضرة السابقة إلى مؤسسي علم الاجتماع – ابن خلدون و أوغست كونت– سنحاول من خلال هده المحاضرة عرض أهم الإسهامات الفكرية لبعض الرواد الأوائل –كارل ماركس، ماكس فيبر– حيث ساهم هؤلاء كثيرا في إثراء و توضيح موضوع علم الاجتماع و ما يتطلبه علم الاجتماع من مناهج لدراسة الظواهر الاجتماعية .

أولا : كارل ماركس Karl Max(1818– 1882):

شهدت أوروبا خلال القرن التاسع عشر تطورات فكرية متعددة، و ظهرت إيديولوجيات متصارعة نتيجة بظهور القوميات المتعددة التي لم تشهدها أوروبا خلال العصور الوسطى، و قد عايش كارل ماركس هده التغيرات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الإيديولوجية، التي لم تشهدها أوروبا من قبل، و خاصة ظهور مشكلات العمل و الإنتاج نتيجة بظهور المجتمع الصناعي المتمايز عن المجتمع الإقطاعي، الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى، كما ظهرت طبقات اجتماعية لم تكن معروفة من قبل، و التي اسماها بالطبقات الرأسمالية، و طبقات أخرى اسماها بطبقة العمال أو طبقة البروليتاريا.

1– علم الاجتماع عند كارل ماركس:

و في الواقع لم يتناول ماركس مفهوم علم الاجتماع، و سماه بعلم المجتمع، الذي يهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية المتعددة، و هدا ما ظهر بوضوح في تصوراته حول المادية التاريخية، التي اهتمت بدراسة المجتمع و الإنسان معا.

حاول كارل ماركس تفسير البناء الاجتماعي و التغيرات التي تطرأ عليه بواسطة نسق متكامل من الأسباب و النتائج، فقد تأمل حركة التاريخ، و رأى فيها عملية تطور مستمر تخضع له الإنسانية برمتها، و اكتشف أن سبب هدا التطور هو ما نسميه اليوم "**المادية الجدلية**".

يدعو ماركس إلى نظرية سوسيولوجية ثورية و راديكالية لا يؤمن بمبدأ التوازن و المحافظة على المجتمع، كان يدعو إلى التغيير الجذري في إطار ما أطلق عليه المادية التاريخية و الجدلية، مع السعي بكل الطرق في القضاء على الفكر البرجوازي و من إسهاماته أيضا تصوره للتطور التاريخي البشري الذي صنفه إلى عدة أطوار هي:

المرحلة العبودية ⟵ المرحلة الاقطاعية ⟵ المرحلة البرجوازية ⟵ المرحلة الاشتراكية ⟵ المرحلة الشيوعية " القضاء على الملكيات الفردية."

من خلال هده المراحل التطورية، نجد أن كارل ماركس يقر على أنه منذ القدم أي مند الوجود الإنساني و الإنسان في صراع من أجل المادة، فكل نظام من الأنظمة التاريخية يضم طبقات متناقضة، حيث نجد في النظام العبودي يتكون من طبقتين هما طبقة الأسياد و طبقة العبيد و هدا التناقض و التفاوت بين هاتين الطبقتين سببه المادة، التي ستدفع إلى الصراع بين الطبقتين و من ثم ينحل النظام العبودي و يحل محله النظام الإقطاعي، هدا النظام بدوره يضم طبقتين هما: طبقة ملاك الأراضي و طبقة الفلاحين، هدا التناقض و التفاوت بين هاتين الطبقتين بسبب المادة خلق صراعا بينهما، فيتم القضاء على هدا الصراع و ينحل هدا النظام و يحل محله النظام الرأسمالي المتكون من طبقة برجوازية و طبقة العمال أو بما تسمى بالبروليتاريا، فملاك وسائل الإنتاج هي الطبقة الغنية المسيطرة في المجتمع، و الطبقة العاملة هي الطبقة الخاضعة لها و تعيش حياة الفقر و البؤس بسبب ظلم البرجوازية، فالتفاوت الطبقي و المعاملة السيئة دفعت إلى الصراع، من أجل القضاء على النظام الرأسمالي ليحل محله النظام الاشتراكي.

و قد دعا كارل ماركس العمال إلى قيام ثورة ضد البرجوازيين من خلال مقولته الشهيرة: يا عمال العالم اتحدوا، و كان هدفه حدوث ثورة دموية راديكالية تقضي على النظام الرأسمالي و بالتالي التغيير الجذري للمجتمع و تبني النظام الاشتراكي الذي يدعو إلى الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج .

2- العلاقة الجدلية بين البنية التحتية و البنية الفوقية عند كارل ماركس:

النظام الاجتماعي في نظر ماركس ينقسم إلى قسمين هما:

أ- **البناء الاقتصادي (التحتي)** :وهو الأساس الحقيقي الذي يقوم عليه البناء العرقي، وهو الذي يحدّد طبيعة النظام الاجتماعي، ويطلق عليه قوى الإنتاج، وعلاقات الإنتاج المرتبطة بهذا البناء الاقتصادي،فأثناء عمليات الإنتاج الاجتماعي يدخل الأفراد في علاقات محددة وضرورية مستقلة عن إرادتهم، تتفق مع مرحلة من مراحله تطور قوى الإنتاج المادية، وتكون جملة هذه العلاقات البناء الاقتصادي للمجتمع.

ب-**البناء الاقتصادي الفوقي** :ويتكون البناء الفوقي من النظام السياسي والإيديولوجية السائدة وثقافة المجتمع...ويعد هذا البناء انعكاسا للبناء الاقتصادي، أي أنه متغير تابع.

لقد ركز ماركس على أهمية العامل المادي في تقديم المجتمع و نهضته و في تبديل الأفكار و القيم و المقاييس و العادات و التقاليد، و يقصد بالعامل المادي في تقدم المجتمع و نهضته و في تبديل الأفكار و القيم، و المقاييس و العادات و التقاليد، و يقصد بالعامل المادي ظروف الإنتاج و المواد الطبيعية و قدرة الإنسان على استثمارها بصالحه و رفاهيته الاقتصادية و الاجتماعية، كما يظهر العامل في الملكية و طرق السيطرة عليها و حيازتها و الاستفادة منها، ضف إلى دلك أهمية التوزيع و الاستهلاك في المستويات الاقتصادية التي يتمتع بها الأفراد و الجماعات و لكن العمل و التخصص فيه و تقسيمه على العمال يعتبر مصدرا مهما من مصادر الكسب و الرزق و الربح المادي، و مثل هده الأمور تؤثر بطريقة أو بأخرى على مستويات المعيشة و طرق الحياة.

من هنا يمكننا القول بأن البنية التحتية هي التي تحدد البنية الفوقية أو كما يقول كارل ماركس "**واقعنا الاقتصادي هو الذي يحدد وعينا**" بمعنى أن لكل واقع اقتصادي معين يخلق أفكار و مذاهب و إيديولوجيات معينة تتوافق مع ما ينادي به ذلك الواقع الاقتصادي، فمثلا الأنظمة السالفة الذكر كالنظام العبودي و النظام الإقطاعي و النظام الرأسمالي، فقد كان كل نظام ينادي بإيديولوجية و مذهب معين من الأفكار، حيث نجد مثلا النظام الإقطاعي كان يمجد الإنتاج الزراعي، احترام رجال الكنيسة و الخضوع لهم، احتقار المرأة...إلخ و عند تغير الواقع الاقتصادي من الإقطاعي إلى الرأسمالي ظهر وعي اجتماعي

جديد عما كان عليه في الإقطاعي أي ظهور إيديولوجية فكرية جديدة و من هده الأفكار تمجيد الصناعة، الاهتمام بالعلم و الاكتشافات، الحرية الفردية...إلخ

ثانيا : ماكس فيبر Max Weber (1864- 1920)

هو عالم ألماني ولد في مدينة ايرفورت Erfurt، نشرت له دراسات و مقالات كثيرة في مجلة أرشيف العلوم الاجتماعية و السياسية حيث كان من أبرز ممثل للكتابات الألمانية في العلوم الاجتماعية، و من كتبه "سجل علم الاجتماع" و "السياسة الاجتماعية"، ثم كتابه دو المجلدات المتعددة "الاقتصاد و المجتمع" حيث نشرت بعد وفاته كذلك كتابه "أخلاق البروتستانتي و روح الرأسمالية" سنة 1904، كانت لفيبر دراسات جيدة كأستاذ اجتماع في مجال المنظمات. و كان علم الاجتماع لديه يتميز بالطابع الذاتي بالرغم من تأكيده لعناصر العقلية التي ينطوي عليها نشاط الإنسان عموما كما كان الاتجاه السيكولوجي الذي سيطر على علم الاجتماع في الربع الأول من القرن العشرين متمثلا في أعماله حيث الاتجاه السلوكي المعتدل المرتبط بالاتجاه الثقافي.

1- علم الاجتماع عند ماكس فيبر

يعرف ماكس فيبر علم الاجتماع على أنه علما يكرس جهوده للوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي، أسبابه، و مصاحباته، و يعرف الفعل بوصفه نتاجا للمعنى الذاتي الذي يخلعه الأفراد على سلوكهم، سواء كان هدا المعنى واضحا أو كامنا، و يعد الفعل اجتماعيا بالقدر الذي يضع فيه الفاعل سلوك الآخرين في حسبانه توجها و تصرفا، و تجدر الإشارة في هدا الصدد إلى أن فيبر أعطى لمفهوم الفعل الاجتماعي معنى واسعا كل السعة، بوصفه الموضوع الأساسي للبحث السوسيولوجي من وجهة نظره، فقد ضمنه كافة أنواع السلوك مادام الفاعل يخلع عليها معنى.

2- تصنيفات الفعل الاجتماعي:

لقد صنف ماكس فيبر الفعل الاجتماعي إلى أربعة أنواع و هي:

أ- **الفعل التقليدي:** يستند هدا الفعل على العادات و القيم و الأعراف و التقاليد، مثل المصافحة و أنواعها و الأكل بطريقة معينة وفقا للمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد.

ب-**الفعل الوجداني أو العاطفي:** هو الفعل الذي توجهه العواطف مثل سلوك الأم اتجاه أبنائها.

ت-**الفعل الأخلاقي العقلاني:** له درجة عالية من الوعي مثال دلك ما يقرره ربان السفينة عند الغرق فيغرق معها، أو الدفاع عن الوطن.

ث-**الفعل العقلاني الغائي "الهدف":** يرتبط هدا الفعل بالتخطيط و الترشيد العقلاني أي يخطط قبل التنفيذ و يقارن ما لديه من إمكانيات للوصول إلى أهداف النجاح، و يحلل النتائج المتوقعة في هدا العقل مثل الاستراتيجيات العسكرية و السياسية.

3- أنماط الهيمنة (السلطة):

في كتاب الاقتصاد و المجتمع عالج فيبر عدة أنماط من العلاقات الاجتماعية و خاصة أشكال الهيمنة السياسية، و هو يميز ثلاثة أنماط مثالية للهيمنة:

أ- **الهيمنة التقليدية:** تؤسس مشروعها على الصفة المقدسة للتقاليد، فالسلطة الأبوية في قلب التجمع المنزلي و سلطة الأسياد في المجتمع الإقطاعي تنتميان إلى هده الفئة.

ب-**الهيمنة الكاريزمية:** هي هيمنة شخصية استثنائية ذات هالة خاصة، يؤسس الزعيم الكاريزمي سلطته على قوته في الإقناع و قدرته على تجميع و حشد الجموع، و تتعلق الطاعة لمثل هدا الزعيم بالعوامل الوجدانية التي يتوصل إلى تحريضها و المحافظة عليها و ضبطها.

ت-**الهيمنة الشرعية – العقلانية-** : تستند إلى سلطة القانون القطعي الصريح و غير الشخصي، و هي مرتبطة بالوظيفة و ليس بالشخص. السلطة في التنظيمات الحديثة تجد تسويغها في الكفاءة و عقلانية الخيارات و ليس في قوى سحرية.

4- النمط المثالي (النموذج المثالي):

يرى ماكس فيبر أن أفضل طريقة في دراسة المعاني الذاتية للظاهرات الاجتماعية تتمثل في استخدام النمط المثالي، و هدا النمط ليس فرضا، و لكنه يوجه الباحث إلى وضع الفروض، و ليس وصفا للواقع بل يستهدف توفير الوسائل الواضحة للتعبير عن هدا الوصف، و يبدو أن هدا المنطق تقوم عليه عبارته القائلة بوجود نوعين من المعاني:

الأول : و هو المعنى الموجود واقعيا لفاعل فرد واقعي.

الثاني: هو المعنى الذاتي الذي ندركه نظريا و نطلق عليه النمط المثالي، و هو أوضح مستوى لمفهوم مجرد عام ارتكز عليه تحليل فيبر، فهو ينظر إلى الفاعل لا على أساس أنه يستجيب لمؤثر بعينه، و إنما

على أنه يبذل جهدا ليتلاءم مع أنماط من السلوك المثالي المجردة، و في هدا يوضح أن بناء أسلوب الفعل الرشيد الخالص يعني تقديم نمط من السلوك إلى الباحث في علم الاجتماع ليساعده في الدراسة لأنه عندما يقارن السلوك الفعلي بهذا النمط يستطيع فهم الأساليب التي يتأثر بها هدا السلوك الفعلي بالعوامل غير الرشيدة، و من هنا تكون هده العوامل سبب الانحراف عن السلوك المتوقع، و خلاصة كل هدا أن النمط المثالي لا يشكل أسلوبا للفعل الواقعي و إنما يعتمد أسلوبا مثاليا مفترضا يمكن المضاهاة في ضوئه و المقارنة أيضا التي تساعد على فهم ما هو قائم.

5- التنظيم البيروقراطي:

تمثل الإدارة البيروقراطية النمط الخالص للهيمنة الشرعية، و تندرج السلطة المؤسسة على الكفاءة و ليس على الأصل الاجتماعي، ضمن إطار من وضع تدابير موضوعية غير شخصية، و ينقسم تنفيذ المهمات إلى وظائف متخصصة ذات حدود محددة بشكل منهجي، و تدار المهنة بقرائن موضوعية من الأهلية و القدم...إلخ و ليس عن طريق قرائن فردية.

يحدد فيبر بدقة أن هدا النمط من التنظيم ليس خاصا بالإدارة العامة، بل يخص أيضا المنشآت الرأسمالية الكبرى و حتى السلطات الدينية، تتصف البيروقراطية بنمط إداري و بنمط من التنظيم مؤسس على عقلنة الأهداف مثلما بدأ يطبقها تايلور، هده العقلنة تمس أيضا أشكال الفكر عبر انطلاقة العلوم و التقنيات، إن التحول العلماني و التحول التقني للفكر يضعان نهاية لعالم الأساطير و المعتقدات الدينية، و هدا هو معنى الصياغة الجميلة لماكس فيبر حول "نزع السحر عن العالم".

خلاصة:

لقد أضفت أفكار كل من العالمين كارل ماركس و ماكس فيبر العديد من الإسهامات الفكرية في علم الاجتماع، فلكل عالم كان له توجهه الخاص و نظرته إلى المجتمع بشكل عام.

مثلا نجد كارل ماركس الذي عايش كل من الثورات الفكرية و السياسية و الاقتصادية، فقد كانت نظرته ثورية راديكالية للتخلي عن كل أنواع الظلم الذي كان يعيشه العمال في النظام الرأسمالي جراء المعاملة السيئة من طرف البرجوازيين أو الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج.

أما فيما يخص ماكس فيبر فإن أعماله المرتبطة بالفعل الاجتماعي و التنظيم البيروقراطي أو التنظيم العقلاني الرشيد جاءت لتترجم أيضا التغيرات و التطورات الحاصلة على مستوى المنظمات في حقبة كثرت بها المصانع و المنشآت الحديثة، مما استلزم البحث عن نمط مناسب للتسيير.

قائمة المراجع المعتمدة:

1- إحسان محمد الحسن، عدنان سليمان الأحمد. المدخل إلى علم الاجتماع. ط2. عمان الأردن: دار وائل للنشر و التوزيع، 2009.

2- جميل الحمداوي. أسس علم الاجتماع. د.ن. 2015

3- خالد حامد. مدخل إلى علم الاجتماع.ط2. الجزائر: جسور للنشر و التوزيع، 2012

4- عبد الله محمد عبد الرحمان. علم الاجتماع. النشأة و التطور. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999

5- محمد شهاب. رواد علم الاجتماع. د.ت. من الموقع الالكتروني: www.alkottob.com

6- عبد الباسط عبد المعطي. اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الكويت: عالم المعرفة، 1990

7- فيليب كابان، جان فرانسوا دورتيه. علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية – أعلام و تواريخ و تيارات– دمشق، سورية: دار الفرقد للطباعة و النشر و التوزيع، 2010.